رسالة ابن فضلان

في وصف رحلته إلى بلاد البلغار والخزر

بقلم الأستاذ فوزي العنتيل

سبب الرحلة

في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله (٢٩٥ – ٣٢٠ = ٩٠٨ – ٩٣٢ م) ، ورد الى الخليفة كتاب ملك البلغار : « يسأله فيه البعثة اليه ممن يفقهه في الدين ، ويعرفه شرائع الاسلام ، ويبنى له مسجداً ، وينصب له منبراً ليقيم عليه الدعوة له في بلده وجميع مملكته ، ويسأله بناء حصن يتحصن فيه من الملوك المخالفين له ؛ فأجيب الى ما سأل من ذلك » .

هذه مقتطفات من رسالة ابن فضلان عن سبب رحلته الى بلاد البلغار أو « الصقالبة » كما يسميهم ضمن الوفد الذى بعث به الخليفة . وكانت مهمة ابن فضلان هى أن يقوم بقراءة كتاب « المقتدر » على « خان » البلغار ، « وتسليم ما أهدى اليه ، والاشراف على الفقهاء والمعلمين » .

وقد أنجز ابن فضلان مهمته الرسمية، وسجل مشاهداته وانطباعاته الفريدة عن هذه الرحلة التى استغرقت أحد عشر شهرا فى الذهاب . فقد غادر الوفد بغداد فى يوم الخميس ١١ صفر سنة ٣٠٩ هـ = ٢١ يونيه سنة ٩٢١ م ، « وظل يصعد شرقا وشمالا ماراً باقليم الجبال ، فهمذان فالرى قرب طهران اليوم ، وعبر نهر جيحون ، فبلغ بخارى، ثم أوغل فى البرارى والبوادى حتى وصل الى الفولجا .. » (١) وكان تاريخ وصول الوفد الى ملك البلغار هو (يوم الأحد ١٢ محرم سنة ٣١٠ هـ = ١١ مايو سنة ٩٢٢ م » أو قريبا من ذلك التاريخ .

وقد ترك ابن فضلان فى رسالته الشهيرة هذه وصفا مفصلا لعادات القبائل والشعوب فى هذه الأصقاع وأشار الى أهم طقوسها ومعتقداتها وممارساتها ونظمها الاجتماعية والاقتصادية مما جعل لملاحظاته أهمية بالغة فى الدراسات التاريخية والأنثوجرافية الحديثة .

واذا كانت « الأنثروبولوجيا » تدين بنشاتها الى فضول الشعوب المبكرة نحو جيرانها ، فانها تدين أيضا الى فضول الرحالة الذين جابوا الاقطار المختلفة ووصفوا ما رأوا وسمعوا . واذا كان هذا الفضول المبكر يظهر ، كما يقول أحد العلماء ،

(١) الدكتور سامى الدهان : مقدمة تحقيق رسالة ابن فضلان . دمشق ١٩٥٩ م .

فى رسم العبيد الأجانب والأسرى والزوار على جدران المقابر فى وادى النيل القديم الى ان بدا الاغريق بشغفهم بالتصنيف فى تنظيم هذا الفضول العشوائى ، وذلك بمحاولة تبويب اجناس النوع البشرى ، فان هذه العملية قد استمرت دون انقطاع منذ الأزمنة الكلاسيكية (١) •

وكانت هذه الملاحظات الوصفية فى اول الامر تتمثل فى اشارات متفرقة فى كتب المؤرخين القدامى وتدور حول موضوعات مختلفة مثلما نجد عند « هيرودوت ٤٨٠ ق م » •

ثم أخذ ينشأ فرع جديد من الأنثروبولوجيا هو « الاثنوجرافيا » ، أو « الانثولوجيا الوصفية » معتمدا على ملاحظات الرحالة فى وصف مظاهر الثقافة المادية وما يتصل بها من مؤسسات اجتماعية ودينية عند الشعوب والجماعات المتخلفة، وقد اسهم الرحالة العرب فى العصور الوسطى بصورة ملحوظة فى اتساع نطاق هذه الدراسات الاثنوجرافية وكان لها أثرها الواضح فيما يتصل بتاريخ « علم الانسان » ، اذ أمدت الدارسين المحدثين بذخيرة وافية عن عادات ونظم المجتمعات المتخلفة أعانتهم على الدراسة المقارنة، وتتبع اصول هذه الممارسات والمعتقدات المختلفة •

ويعد « ابن فضلان » رائداً فى هذا المجال بالرغم من أنه لم يكن رحالة ولا جغرافيا ، ولكن نظراته الفاحصة وفضوله الشديد الى المعرفة ، أنتج فى النهاية هذه الملاحظات المتقصية عن حياة القبائل التركية والشعوب التى كانت تعيش على ضفاف « الفولجا » فى القرن العاشر الميلادى من الأسلاف الوثنيين لأهل الشمال الحاليين فى اوربا •

وقد أهلته هذه المعلومات التاريخية والاثنوجرافية القيمة والتى تضمنتها رسالته الشهيرة لذلك الاهتمام البالغ الذى قوبل به بين المستشرقين وعلماء الأنثروبولوجيا المحدثين فى عديد من الأقطار •

وقد التقى « ابن فضلان » فى طريقه الى الفولجا بمستعمرة من التجار الاسكندنافيين الذين تركت عاداتهم وسلوكهم أثرا عميقا فى نفسه ، مما سوف نفصل القول فيه فيما بعد •

« وكانت مشاهداته هى أقدم نص باق معروف يصف بالتفصيل الفرنك أو « الفارنجيين = Varangians » ، وهو الأسم الذى يطلقه المؤرخون على التجار الاسكندنافيين فى روسيا القديمة ، والذين سماهم ابن فضلان : «الروسية»، ومن هذه الكلمة جاء اسم « روسيا » Russia (٢)

ويقول « كراتشكوفسكى » ان ابن فضلان يحتل المكانة الأولى بين الرحالة الذين زاروا الأصقاع الشمالية القريبة من الاتحاد السوفيتى فى القرن العاشر « سواء من الناحية الزمنية ، أو الأهمية الذاتية ، وذلك بسبب رسالته المشهورة التى تجدد الاهتمام بها فى الأعوام الأخيرة بنفس الدرجة التى تمتعت بها لأول مرة منذ مائة وعشرين عاما » ••

ويقول ان « ابن فضلان » يقدم لنا صورة حية للظروف السياسية فى العالم الاسلامى والعلاقات بين بلاد الاسلام والبلاد المتاخمة لها فى اسيا الوسطى أو الأصقاع النائية التى كانت تمثل أطراف العالم المتمدن آنذاك مثل حوض الفولجا، وتحفل الرسالة بمادة اثنوغرافية قيمة جدا ومتنوعة بصورة فريدة ، وهى تمس عدداً من

(١) Manchip White : Anthropology, London, 1960.

(٢) Carleton S. Coon : A Reader in General Anhiropology, New York, 1960.

القبائل التركية البدوية القاطنة آسيا الصغرى وعدداً من الشعوب التى كانت تلعب آنذاك دوراً أساسيا فى تاريخ أوربا الشرقية كالبلغار والروس والخزر .

ويمضى « كراتشكوفسكى » فيتحدث عن قيمة الرسالة من الناحية الأدبية بأسلوبها القصصى السلس ولغتها الحية المصورة التى لا تخلو بين آونة وأخرى من بعض الدعابة التى ربما لم تكن مقصودة (١) .

***

الامبراطورية الاسلامية فى ذلك العصر :

حين أهل القرن الثامن الميلادى كانت الامبراطورية العربية تبسط سلطانها على مناطق مترامية الأطراف من جبال القوقاز فى الشمال الى صحارى افريقية فى الجنوب ومن تخوم الهند فى الشرق الى المحيط الأطلسى فى الغرب ، وقد أدى اتساع رقعة الخلافة الاسلامية وتدعيم سلطانها فى القرنين الثامن والتاسع الى ظهور مهام ادارية عديدة ، خاصة فى محيط الشئون المالية والخراج .

وقد اقتضت ظروف الأحوال الجديدة بدورها جمع معلومات دقيقة محققة عن تقسيم الولايات ، وعن الأماكن المأهولة والمحاصيل الزراعية والصناعية وتقدير الخراج والضرائب عينية ونقدية كذلك فقد تطلبت المركزية فى النظام الادارى الذى تجمعت خيوطه فى بغداد شق طرق جديدة للمواصلات واستيفاء معلومات دقيقة عن تلك الطرق مع تعداد المراحل ومنازل البريد وتحديد المسافات وظروف السفر .

(١) تاريخ الأدب الجغرافى العربى . ترجمة : د . صلاح عثمان هاشم القاهرة ١٩٦٣ .

يضاف الى ذلك أن مصالح الدولة حتمت الحصول « على معلومات دقيقة عن الأقطار الأخرى خاصة المتاخمة لها ، وقد ساعد على هذا الحرب والسلم معا ، فالمعلومات قد أتت بها السفارات وأسرى الحرب العائدون الى أوطانهم » (٢) .

وعلى الرغم من كل الجهود التى بذلت من جانب العاصمة الامبراطورية فى بغداد ، فان حركة اللامركزية كانت نتيجة لا محيص عنها لذلك الامتداد الشاسع للامبراطورية وصعوبة المواصلات فى داخلها .

« وطوال القرن الثامن التزم العرب سياسة الدفاع بعد أن تم لهم فتح الأماكن المتحضرة فى أحواض جيحون وزرفشان وسيحون . وقد بنى العرب الأسوار وحفروا الخنادق ليحافظوا على البلاد المتحضرة الواقعة على تلك الأنهار من هجمات البدو (٣) .

وكان السور الأمامى الذى يحمى بلاد الشرق العربى من خطر القبائل البدوية فى وسط اسيا يمتد فى أرض خراسان بالشمال الشرقى من فارس وفى بلاد ما وراء النهر ، وكثرت فى منطقة هذا السور المدن العامرة والمواقع الاستراتيجية الهامة التى تؤدى مباشرة الى اقليم العراق من أرض الشرق العربى ، ومن أمثلة ذلك «بخارى» و « سمرقند » التى اشتهرت بأسوارها المنيعة وحدائقها النضرة (٤) .

ولا تزال تلك الأسوار والخنادق التى اعدها

(٢) المرجع السابق

(٣) انظر : بارتولد : تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ترجمة د . أحمد السعيد سليمان . القاهرة ١٩٥٨ .

(٤) د . ابراهيم العدوى : العرب والتتار . القاهرة ١٩٦٣ .

العرب فى « الصغد » فى ولاية « بخارى » ، وفى أطراف « طشقند » لا تزال قائمة الى الآن •

وحين أخذ الضعف يتسرب الى الوحدة السياسية لهذه الامبراطورية قامت روابط الدين والثقافة فى ضم شملها ، كذلك قامت الصلات التجارية بدور هام حين نهض المسلمون الى أطراف الأرض ينقلون البضائع ويشترون السلع، وبلغوا أقصى بحار الصين وسواحل البلطيق والأندلس والأطلسى وجزر المحيط الهندى (١)

وكان التجار يبحرون من بغداد وغيرها من مراكز التصدير الى الشرق الأقصى واوربا وأفريقية يحملون معهم المنسوجات والجواهر والمرايا المعدنية والخرز الزجاجى والتوابل وغيرها ، وتشهد كنوز العملة العربية — التى كشفت فى مواضع متعددة فى أقصى الشمال فى روسيا وفنلندا والسويد وفى ألمانيا — على مبلغ ما وصل اليه النشاط التجارى من عالمية على ايدى المسلمين فى هذا العصر والعصر الذى تلاه •

وقد اتخذت الرحلات طابعا جم الحيوية والنشاط منذ القرون الاولى للخلافة ، كما استخدمت التجارة الطرق البرية والبحرية على السواء •

***

وقد نشطت الحركة التجارية البرية فى القرن العاشر مع الشعوب التى تعيش فى منطقة «الفولجا» فى الشمال • أما بحر «الخزر» فقد كان بسبب قربه من المراكز الفارسية الهامة والمدن الناهضة «كسمرقند» و «بخارى» وما يتصل بها — مسرحا لحركات تجارية نشيطة •

(١) انظر : مقدمة الدكتور سامى الدهان للرسالة •

ولقد كان التجار المسلمون يحملون معهم التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والأدوات الصينية والأوانى الزجاجية ، وكانوا يستوردون من بين ما يستوردونه من السلع : التوابل والكافور والحرير من آسيا الصغرى ، والعاج والأبنوس والعبيد من أفريقية (٢) •

« وقد ذكر « المقدسى » فى كتابه ، أن المسلمين كانوا يجلبون كثيراً من السلع من جنوبى الروسيا والبلاد الأوربية الشمالية ، عد منها الجلود والفراء والشمع والقلانس والعسل والسيوف ، وقال انهم كانوا يستجلبون الرقيق من الصقالبة ، والصقالبة فى عرفهم كانت تشمل السلافيين والجرمان وبعض سكان أوربة (٣) •

ولقد كانت طرق البريد تربط عاصمة لادارة البريد الرئيسية فى بغداد « ادلة » تساعد المسافرين والتجار والحجاج ، وهى التى وضعت على أساسها البحوث والكتب الجغرافية فيما بعد ، وأفاد منها العلماء الجغرافيون فى كتابة مؤلفاتهم•

ولقد قام هؤلاء الجغرافيون العرب بوصف البلاد فى المشرق والمغرب ، ومنذ القرن الثالث الهجرى والتأليف فى « المسالك والممالك » يأخذ طابعا واضحا فى وصف الأقاليم والبلدان ومدنها وانهارها وجبالها ، واشتهرت أسماء كثيرة مثل : اليعقوبى، وابن الفقيه الهمذانى ، وابن رسته ، وابن حوقل، والاصطخرى ، وابن خرداذبة الذى استعان فى وضع كتابه : « المسالك والممالك » بما فى دار سجلات الدولة من وثائق ، فأصبح كتابه مرجعا هاما للطبوغرافيا التاريخية • ولقد كان ابن

(٢) فيلب حتى : تاريخ العرب • ترجمة مبروك نافع ، القاهرة ١٩٤٩ •
(٣) د • سامى الدهان ، المقدمة •

خرداذبة نفسه صاحب البريد للخليفة المعتمد (٢٥٦ - ٢٨٩ هـ = ٨٨٠ - ٨٩٢م)، فى الجبل (بلاد ميديا القديمة) .

***

لقد أشرنا آنفا الى اهتمام الجغرافيين العرب بوصف البلدان ، وعنايتهم بذكر حال الشعوب وعاداتها ومعتقداتها وأحوالها الاقتصادية معتمدين على المشاهدة أحيانا وعلى السماع احيانا اخرى ، غير ان الملاحظ انهم كانوا يقتصدون كثيرا فى وصف عادات هذه الشعوب وحياتها الاجتماعية ، وليس ذلك بالنسبة لابن فضلان الذى لم يكن جغرافيا ولا رحالة كما ذكرنا من قبل .

فلقد عنى « ابن فضلان » فى رحلته هذه بوصف حياة القبائل والشعوب التى مر بها ووصف عاداتها وشعائرها وممارساتها وصنعها وازيائها وصفا دقيقا شيقا ، ولكن قبل أن نتحدث بالتفصيل عن أجزاء رحلته التى تضمنتها «رسالته» نود ان نختم هذا الفصل بالاشارة الى ما ذكره احد الدارسين عن عاصمة الخلافة « بغداد » واتساع مبانيها وفخامة قصورها ، فيقول بانها فى هذا العصر كانت مدينة كبيرة تشغل على ساحل الدجلة الأيسر مسافة قدرها ٤٣٧٥ فدانا (بالروسية ديستينه ، تساوى ٢٤٠٠ قصبة مربعة) ، وعلى ساحلها الأيمن ٢٩١٦ ٣/٤ فدانا . وكانت قصور الخلفاء وثكنات الجيش ثلث المسافة الواقعة على الساحل الشرقى . وكان فى بغداد أحد عشر جامعاً كبيراً ، وكانت القصور التى بسمرا وبغداد نموذجا لقصور دول كثيرة فى البلاد الممتدة من بخارى الى قرطبة حتى بعد أن تقلصت حدود الخلافة » (١) .

(١) بارتولد : تاريخ الحضارة الاسلامية . ترجمة : حمزة طاهر ، القاهرة ١٩٦٦ .

ولقد ذكر المؤرخون أن « المقتدر بالله » ، الذى أوفد البعثة الى البلغار ، كان فى داره أحد عشر ألف خادم خصى من الروم والسودان ، وكانت خزينة الجواهر فى أيامه مترعة بالجواهر النفسية وأن وزيره « الحسن بن الفرات » أنفق على تجميل دار لاستقبال رسل ملك الروم الى الخليفة فى سنة ٣٠٥ هـ ما بلغ ثمنه ثلاثين ألف دينار ، وأن « المقتدر » فى هذه المناسبة « أطلق على القواد الشاخصين من بيت المال مائة ألف وسبعين ألف دينار » (٢) .

وكان فى قصره (٣٨ ألف ستار من بينها ١٢٫٥٠٠ مذهبة عدا ٢٢ ألف بساط ، وقد استولى الذعر واعترت الدهشة هؤلاء السفراء من هذه المظاهر (٣) .

ويكفى لتصوير التقدم العلمى والحضارى فى عهد « المقتدر » أن نشير الى هذه الحادثة ، وهى أن طبيبا أخطأ فى علاج مريض فمات ، فاصدر الخليفة المقتدر أمراً يحرم فيه على الأطباء مباشرة مهنة الطب الا اذا امتحنهم طبيبه الخاص « سنان بن قرة » ، فتقدم للامتحان من بغداد وما حولها فقط ثمانمائة وستون طبيبا ، وذلك بخلاف اطباء البلاط أو الأطباء الذين تشهد لهم شهرتهم وكفاءتهم بأنهم فوق الشبهات » (٤) .

لقد كان حوض دجلة والفرات كما يقول « بارتولد » أنشط أماكن الحركة العلمية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر) ،

(٢) مقدمة الرسالة .
(٣) تاريخ العرب .
(٤) جلال مظهر : مآثر العرب على الحضارة الأوربية . القاهرة ١٩٦٠ . وانظر : ليكلير : تاريخ الطب عند العرب .

فالبصرة وحران وبغداد كانت أهم مراكز العلم والحضارة ••• ولقد ساعدت العلاقات الوثيقة بين الممالك الاسلامية المختلفة مساعدة كبيرة فى نقل نتائج الحضارة من يد الى يد ، فان تاريخ الطبرى الذى ألف فى بغداد فى القرن الرابع (العاشر الميلادى) ، والذى هو أوسع مرجع فى العصور الاسلامية الأولى ، انتشر فى القرن نفسه فى العالم الاسلامى من مشرقه الى مغربه •

ونختتم هذه الفقـرة بأن نورد بعض ما قـاله « كراتشكوفسكى » من أن المكانة المرموقة التى تشغلها الحضارة العربية فى تاريخ البشرية لهو امر مسلم به من الجميع فى عصرنا هذا ؛ وقد وضح بجلاء فى الخمسين عاما الأخيرة فضل العرب فى تطوير جميع تلك العلوم التى اشتقت لنفسها طرقا ومسالك جديدة فى العصور الوسطى ، ولا زالت حيـة الى أيامنـا هـذه ـ أعنى علوم الفيـزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا ـ أما فيما يتعلق بالأدب الفنى العالمى فان العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءا أساسيا من التراث العام للبشرية كما امتد تأثيرهم كذلك الى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبية التى نشأت فى بيئات غير عربية (١) .

***

ابن فضلان ، ورسالته :

ليست هناك معلومات مؤكدة عن نشاة ابن فضلان أو حياته أو مؤلفاته غير هذه الرسالة ، وقد ترجم له « ياقوت » فلم يزد عن القـول بانه : احمـد بن فضلان بن العباس بن راشـد بن حماد مولى محمد بن سليمان رسول المقتدر بالله •

ومحمد بن سليمان هو القائد الذى شنت شمل

(١) تاريخ الادب الجغرافى العربى •

الطولونيين وأعـاد مصر الى حظـيرة الخـلافة فى « سنة ٢٩٢ هـ = سنة ٩٠٥ م » •

ولقد لقيت رسالته التى وصف فيها رحلته هذه ما لقيه مؤلفها ، فظلت مجهولة حقبة طويلة من الزمن ، فقد أخذ الجغرافيون العرب ينقلون عنها منذ القرن الرابع الهجرى دون ان يذكروا اسمه أو يعرضوا له فى مصـادرهم التى اخـذوها عن رسالته ، فقد قرأ الرسالة مثلا الاصطخرى ، وابن رسـته ، والمسـعودى ، دون أن يثبتوا فى كتبهم أنهم نقلوا عنه •

وفى القـرن السـابع كان « ياقوت » اول من أشار الى فضله ، واختار فصولا من الرسالة دونها فى كتابه « معجم البلدان » ، وعن طريقه عرفت فى العصر الحديث • ويفهم مما ذكره « ياقوت » أن الرسالة كانت متوفرة فى القرن السابع يعرفها الناس ويتداولونها (٢) .

ولقد ظلت رحلة ابن فضلان معروفة لمدة طويلة عن ياقوت وحده الذى حفظ جزءا كبيرا منها فى معجمه الجغرافى (٣) •

وقد تنبه المستشرقون الى خطر هذه الرسالة ، فراحوا منذ أهل القرن التاسع عشر يعنون بهـا دراسة وتعليقا وترجمـة ، فنشر بعضهم فى سنة

(٢) انظر : مقدمة الرســالة • والرحالة المسلمون فى العصور الوسطى لزكى محمد حسن والجغرافيون العرب لمصطفى الشهابى • وتاريخ آداب اللغــة العربيــة ج ٢ لجورجى زيدان وبروكلمن ج ١ • ودائرة المعــارف الاسلامية

(٣) المواد التى نقلها ياقوت عن ابن فضــلان هى : خوارزم • وباشغرد • وبلغار • واتل • وروسى • وخزر • (مع ملاحظة ما اتضح أخيرا من أن القسم الخاص بالخزر والذى ينسبه ياقوت الى ابن فضلان انما هو فى الواقع للاصـطخرى الأدب • الجغرافى العربى •

١٨٠٠ ما قاله الجغرافيون العرب عن الروس وفيهم الادريسي والمسعودى وابن فضلان ، وفى سنة ١٨١٤ جمع المستشرق « راسموسن Rasmussen أجزاء من هذه الفصول وترجمها الى الروسيه ، ونقلها عنه الى الانجليزية نيكلسون بعد اربع سنوات (١) .

ثم أفرد لها المستشرق الروسى « فرين Fränn » بحثا رائعا استمر ثمانين عاما تقريبا لا يبزه شيء ، بل وحفز الى ظهور عدد من الأبحاث بأقلام مختلف الاتجاهات العلمية ، احتل من بينها مكانة مرموقة أبحاث « روزن Rosen » ، و «بارتولد

وقد بدأ فرين فى سنة ١٨١٩ فى جمع مخطوطات « ياقوت » ليستخرج منها ما نقله عن ابن فضلان ، وراح ينشرها تبعا . ومن الذين اهتموا بابن فضلان أيضا ـ « وستنفلد » فى سنة ١٨٦٣ ، و « فستبرج Westberg الذى نشر دراسة عن ابن فضلان فى سنة ١٨٩٩ ، وكذلك المستشرق التشيكى « دفور جاك Dvorak » فى سنة ١٩١١ .

وقد أدى الكشف عن مخطوطة مشهد (طوس) بايران فى السنوات العشرينات من هذا القرن الى اتساع المادة عن ابن فضلان بشكل ملحوظ ، ولم تلبث دراسة ابن فضلان أن دخلت فى طور جديد بفضل البحث الذى قام به كوفاليفسكى A.P. Kovalevski (١٩٣٩) .

وعلى الرغم من ندرة المعلومات عن شخص ابن فضلان الا أنه لم يقم هنالك أدنى ريب حول صحة نسبة الرسالة اليه (٢) .

ومنذ ظهور المخطوطة توجه المستشرقون الى دراستها والتعريف بها ، وقد نهض العالم التركى « زكى وليدى طوغان » الى تحقيقها والتعليق عليها ومقابلتها على « ياقوت » وغيره ، ونشرها فى سنة ١٩٣٩ .

وتعد الدراسة التى صدرت بالروسية فى هذه السنة نفسها برعاية « كراتشكوفسكى » والتى تلتها ترجمة الرسالة الى اللغة الروسية مع صورة شمسية لها ـ أدق ما صدر عن ابن فضلان ورسالته ، وهى أصح التعليقات وأقربها الى فهم النص (٤) .

وتعتبر دراسة كراتشكوفسكى بمثابة الاساس الثابت الذى يعتمد عليه فى جميع الاستنتاجات الحديثة ، كما انها تعرض أيضا لكثير من الأعمال التى تمت بصلة الى هذا النص (٥) .

على أن الدكتور سامى الدهان يشير الى صعوبة هذه الدراسة بالنسبة للقارىء العربى لأنها اكتفت بطبع النص العربى مصوراً كما هو فى حين أن التعليقات باللغة الروسية .

ومن الذين اهتموا بدراسة ابن فضلان كذلك المستشرق « تشاكلادى » الذى قام بنشر تعليقات باللغة الألمانية فى المجلة المجرية مع الصور الشمسية لرحلة ابن فضلان فى سنة ١٩٥١ .

كذلك صدرت دراسة أخرى بالروسية بعناية كوفالفسكى فى سنة ١٩٥٧ ، وأخيراً تعليقات عالم الأنثروبولوجيا الأمريكى « كارلتون كوون » على القسم الخاص بالاسكندنافيين ، والذى اشرنا اليه فى صدر هذا البحث ، وذلك ضمن مؤلفه

(١) مقدمة الرسالة .

(٢) الأدب الجغرافى العربى .

(٣) المرجع السابق . تتضمن النسخة الخطية أربع رسائل آخرها رسالة ابن فضلان وتبدأ بورقة ١٩٧ و .

(٤) نشرت تحت عنوان : رحلة ابن فضلان الى البلغار) انظر ! مقدمة د . الدهان .

(٥) K. Czeglédy : Zur Meshheder Handschrift VonIbn Fadlans Reisebericht, Budapest, 1951.

الضخم عن الأنتروبولوجيا المطبوع فى نيويورك.

أما فى الأقطار العربية فلم ينهض ناشر او محقق لدراسة هذه الرحلة والتنويه بصاحبها الى أن قيض لهذا العمل الجليل أن يقوم به الدكتور سامى الدهان فعكف على تحقيق رسالة ابن فضلان وأصدرها ضمن مطبوعات المجمع العلمى العربى فى دمشق فى سنة ١٩٥٩ .

***

بدء الرحلة

أشرنا فى بداية البحث الى أن ملك البلغار قد أجيب الى طلبه ، وتقرر أن يتألف الوفد الرسمى من أربعة أشخاص هم : سوسن الرسى ، وتكين التركى ، وبارس الصقلابى ، وابن فضلان ، ومعهم دليل هو : عبدالله بن باشتو الخزرى رسول ملك البلغار « ألمش بن يلطوار » .

ويشير « كراتشكوفسكى » الى أن رئاسة الوفد كانت لسوسن الرسى ، غير أن احمد بن فضلان يحاول دائما فى الرسالة أن ينسب الى نفسه الدور الرئيسى. فهو كما سوف نرى يأمر وينهى ويقرر الرحلة أو البقاء فى جميع الأحوال .

وقد غادرت البعثة بغداد كما ذكرنا فى ١١ صفر ٣٠٩ هـ = ٢١ يونيو ٩٢١ م سالكة طريق الحجاج ، وقد مرت البعثة فى طريقها بهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخارى ، حيث التقى وابن فضلان فى سبتمبر من عام ١٩٢١ بوزير السامانيين والعالم الجغرافى الشهير « الجيهانى » ، ثم ساروا مع نهر جيحون الى خوارزم عند بحر آرال ، وعبروا صحراء « أوست أورت » ثم نهر يايق فوصلوا الى حوض الفولجا (١) .

وفى رأى « بارتولد » أن التعليل الوحيد لاختيار هذا الطريق بالذات هو أن البلغار قد اتصلوا بالمدنية الاسلامية أول الأمر بواسطة الولايات التابعة للخوارزميين والسامانيين ، والا فان أقصر طريق من بغداد الى حوض الفولجا هو طريق قافقاسيا (٢) .

ويصف ابن فضلان طريق الرحلة منذ مغادرة الوفد بغداد ، ويذكر البلاد التى مر بها الوفد والوقت الذى انقضى فى كل بلدة ، حتى يبلغ طرف مفازة « آمل » وهذه المفازة ــ كما أورد يا قوت ــ رمالها صعبة المسلك ، ويقول ابن فضلان : « ثم قطعنا المفازة الى آمل ، ثم عبرنا « جيحون » وصرنا الى « آفرير » : رباط طاهر ابن على . ثم رحلنا الى بيكند . ثم دخلنا بخارى ، وصرنا الى الجيهانى وهو كاتب أمير خراسان ، وهو يدعى نجراسان الشيخ العميد » (٣) .

ويمضى « ابن فضلان » فى الحديث الذى جرى بين الوفد وبين نصر بن احمد السامانى ، وتطلب البعثة منه ضمن ما تطلب أن يكتب الى صاحبه بباب الترك لاعداد بعض الجنود لحراسة البعثة (٤)

ويصف « ابن فضلان » دراهم بخارى ، وهى ألوان شتى كما يقول ، منها « الغطريفية » وهى نحاس وشبه وصفر يؤخذ منها عدد بلا وزن مائة منها بدرهم فضة .

(١) الأدب الجغرافى ..

(٢) تاريخ الترك .. ومن الملاحظ أن أشهر قطر البريد الرئيسية كان هو طريق خراسان الكبير الذى كان يمتد الى الشمال الشرقى مارا بهمذان والرى ونيسابور ومرو وبخرى وسمرقند وكان يصل بغداد بمدن الحدود .

(٣) ورقة ١٩٧ من الرسالة ، وانظر التحقيق ص ٧٣ ــ ٧٨ .

(٤) نصر بن أحمد بن نصر السامانى حكم من سنه ٣٠١ ــ ٣٣١ = ٩١٣ ــ ٩٤٣ م ويسمى نصر الثانى .

ويذكر أن لهم دراهم أخـــرى يقـال لهـا السـمرقنـدية « سـتة منها بدانق » . والدراهم الغطريفيـة ضربهـا « غطريف بن عطاء » عامل خراسان لعهد الرشـيد فنسبت اليه . وقد ذكر « ياقوت » أن أهـل بخـارى فى أيام السـامانية لا يتعـاملون بالدنانير فيمـا بينهم ، وأيضـا فان دراهمهم لا تجوز الا فى بخارى ونواحيها .

ونود أن نضيف فيما يتصل بالعملة أن الدينار كان يسك فى عهد الدولة الأموية فى دمشق ، وفى عهد العباسيين فى بغداد ، وأما الدرهم فكان يسك فى المدن الكبيرة التابعة للولايات أيضا .

ونعرف مما ذكره المؤرخون أن السامانية برغم تظاهرهم بالولاء للعباسيين الا أنهم كانوا فى الواقع مستقلين استقلالا تاما . وقد تم فى عهدهم اخضاع بلاد ما وراء النهر ، وكانت عاصمتهم بخارى ، وأشهر مدنهم سمرقند تكاد تكسف بغداد كمركز للعلوم والفنون . وكانت الأرض المحيطة ببخارى فى نظر الجغرافيين العرب تعتبر فى ذلك العهـد بخاصة جنة حقيقية فهناك بين سمرقند وبخارى يقع وادى الصغد ، وهو أحد جنات الدنيا الأربع .

ولقد عمـل السـامانيـون على انعاش الأدب الايرانى ، وجذبت عاصمتهم بخـارى كثيرا من الشعراء والعلماء ، فصارت دولتهم من أعظم الدول نظاما فى القرن الرابع الهجرى .

***

فى خوارزم :

بعد أن أقام الوفد ببخارى ثمانية وعشرين يوما رحلوا عنها خوفا من هجوم الشتاء ، ورجعوا الى النهر بعد أن اكتروا سفينة الى « خوارزم » . ويقول ابن فضلان : .. قدمنا خوارزم فدخلنا على أميرها « محمد بن عراق خوارزم شـاه » ، فأكرمنا وقربنا وأنزلنا دارا .

فلما كان بعد ثلاثة أيام أحضرنا ، وناظرنا فى الدخول الى بلد الترك ، وقال : « لا آذان لكم فى ذلك ولا يحـل الى ترككم تغـــررون بدمائكم » (١) .

وقد حـاول الأمير أن يبث الرعب فى قلوبهـم بقوله : ان بينكم وبين البلد الذى تذكرون الف قبيلة من الكفار » ، ومن الواضح كما أشار احد المستشرقين أن خـوارزم شـاه كان يخشى على استقلاله عن الخلافة أن يتأثر بفتح الطريق للعبور الى القبائل التركية ولم يفهم الهدف الأساسى من رحلة الوفد .

ومهما يكن من أمر فان الوفد ظل يتلطف حتى أذن لهم ، فانحدروا من خوارزم الى «الجرجانية» ، وبينهـا وبين « خـوارزم » فى الماء خمســـون فرسخا .

ويصف ابن فضـلان أهـل خوارزم بانهم : « أوحش الناس كلاما وطبعا ، كلامهم أشبه شىء بصياح الزرازير . وبها قرية على يوم يقال لها «أردكو» أهلها يقال لهم «الكردلية» ؛ كلامهم أشبه شىء بنقيق الضفادع . وهم يتبرأون من امير المؤمنين « على بن أبى طالب » ـ رضى الله عنه ـ فى دبر كل صلاة » (٢) .

ولقد حـاول بعض العلمـاء ارجاع اصـل الخوارزميين الى شعب « اللان » ، الذى كان يقطن فى الصحراء الممتـدة من منابع « سيحون » الى منـابع نهر « دون » ، وبعد أن سيطر الترك على

(١) ورقة ١٩٨ من المخطوطه .
(٢) ورقة ١٩٨ .

هذه الصحراء تعرض الخوارزميون للتأثر بالترك اكثر من غيرهم • وقد ورد أنهم ـ فى القرن العاشر ـ يشبهون الترك فى أزيائهم • وكانت لغة الخوارزميين فى العصور الاسلامية الأولى لغة ايرانية ، وان لم تكن مفهومة عند باقى الايرانيين، ويصفها الجغرافيون العرب بأنها لغة لا يفهمها اهل الأقطار الأخرى • ومهما يكن من أمر فان هذه اللغة لم تكن لغة حديث فحسب ، ولكنها كانت لغة أدبية ظلوا يكتبون بها حتى القرن الحادى عشر • وتدل اشارات البيرونى فى كتابه «الآثار الباقية » الى تاريخ الخوارزميين وأعيادهم بانه قد بقيت فى « خوارزم » حتى القرن الثامن الميلادى ثقافة ايرانية قديمة جدا ، وانها بقيت بين الزردشتية حتى القرن الحادى عشر •

ويذكر « البيهقى » أنه كانت ثمة وثائق مكتوبة بهذه اللغة باقية حتى القرن الحادى عشر الميلادى (١) •

وكان فى خوارزم نصارى علاوة على الزردشتية ، ولكنهم لم يكونوا على مذهب الناطرة شأنهم فى ذلك شأن معظم نصارى فارس واواسط آسيا ، بل كانوا ملكانيين •

ويمكن استخلاص فكرة عن لهجة الخوارزميين من الأقوال المتعلقة بالتقويم وأسماء الأعياد التى ذكرها البيرونى • وثمت كلمات قلائل ذكرت فى مصادر أخرى مثل : « غاو خوارى » أى طعام الماشية وقد أوردها الاصطخرى ، ومثل « بوند » أى الخبز ، التى ذكرها ابن فضلان « بكند » ونقلها عنه ياقوت (٢) •

(١) تاريخ البيهقى ترجمة : د • يحى الخشاب . صادق نشأت (القاهرة ١٩٥٦) •

(٢) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، وتاريخ الترك لبارتولد •

وكانت ولاية خوارزم محاطة بمناطق الاستبس من ثلاث جهات ، ويبدو أن أهلها قد أسهموا فى تأسيس المستعمرات الاسلامية بالقرب من سيحون ، وان كان مجال نشاطهم قد اتجه خاصة الى حوض الفولجا حيث البلغار والخزر •

وقد أسهب ابن فضلان فى وصف برد الجرجانية القارس ، ويصف ما كان يصنعه عند النوم فيقول : « ولقد كنت أنام فى بيت جوف بيت • وفيه قبة لبود تركية وأنا مدثر بالأكسية والفرى ، فربما التصق خدى على المخدة » •

ويقول : « ولقد رأيت الأرض تنشق فيها أودية عظام لشدة البرد ، وأن الشجرة العظيمة العادية لتنفلق بنصفين لذلك » (٣) •

فلما انحل نهر « جيحون » أخذت البعثة أهبتها للسفر ، وتزودت بالطعام والملابس الثقيلة والجمال التركية ، ثم غادر الوفد « الجرجانية » : فنزلنا رباطا يقال له « زمجان » وهو بباب الترك، ثم رحلنا الى الغد فنزلنا منزلا يقال له «جيت»(٤)، وجاءنا الثلج حتى مشت الجمال الى ركبها فيه • فأقمنا بهذا المنزل يومين •

ثم أوغلنا فى بلد الترك لا نلوى على شىء ، ولا يلقانا أحد ، فى برية قفر ، بغير جبل ، فسرنا فيها عشرة أيام ، ولقد لقينا من الضر والجهد ، والبرد الشديد ، وتواصل الثلوج الذى

(٣) ورقة ١٩٩ •

(٤) جيت = حد الشىء وطرفه فى اللغة التركية ، وقد أطلق فى وقت ما على « الباشقرد ‥ سم جيتلر » وهى جمع كلمة « جيت » ثم حرفت الى سيت وسيتيا • وسبب التسمية أنهم كانوا يقومون بحفظ حدود ممالك الترك وثغورها (تلفيق الاخبار وتلقيح الآثار م • م • الرمزى ط اورنبورغ • ١٩٨٠)

كان برد « خوارزم » عنده مثل أيام الصيف ، ونسينا كل ما مر بنا ، وأشرفنا على تلف الأنفس » .

فلما قطعت القافلة رحلة شاقة لأكثر من خمسة عشر يوما بلغت جبلا عظيما : « فلما قطعناه أفضينا الى قبيلة من الأتراك يعرفون بالغزية .

***

« الغزية وحياتهم الاجتماعية ومعتقداتهم »

يصف ابن فضلان « الغزية » بانهم بادية لهم بيوت من شعر ، يحلون ويرتحلون . وانهم في شقاء ، وهم مع ذلك .. « لا يدينون لله بدين ، ولا يرجعون الى عقل ، ولا يعبدون شيئا ، بل يسمون كبراءهم أربابا » !.

ويتحدث عن بعض مظاهر حياتهم الاجتماعية ، وعاداتهم المختلفة فيقول مثلا : ان امرهم شورى بينهم ، غير أنهم متى اتفقوا على شيء وعزموا عليه جاء أرذلهم وأخسهم فنقض ما قد أجمعوا عليه .

واذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه ، رفع رأسه الى السماء ، وقال : « بيرتنكرى » وهو بالتركية « الله الواحد » .

ويتحدث عن قذارتهم ، وعن تقديسهم للماء فيقول انهم لا يستنجون ولا يغتسلون ، « وليس بينهم وبين الماء عمل ، خاصة في الشتاء ... ولا يقدر أحد من التجار ولا غيرهم أن يغتسل من جنابة بحضرتهم الا ليلاً من حيث لا يرونه . « وذلك أنهم يغضبون ويقولون : « هذا يريد ان يسحرنا لأنه قد تفرس في الماء » . ويغرمونه مالاً .

ويذكر أيضا أن من رسومهم « ألا ينزع الواحد منهم الثوب الذى يلي جسده حتى ينتثر قطعا .

المرأة ومراسم الزواج :

ولقد لاحظ ابن فضلان سفور نسائهم وانهن لا يستترن من رجالهم ولا من غيرهم . « وكذلك لا تستر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس » .

ومع ذلك فانهم لا يعرفون الزنا ، « ومن ظهروا منه على شيء من فعله شقوه بنصفين » وذلك بشده بين أغصان شجرتين ثم ارسالها فينشق .

ورسوم تزويجهم أن يخطب الواحد المراة على صداق معين من الثياب أو الدواب أو غير ذلك فاذا وفاه أخذها دون معارضة . « واذا مات الرجل وله زوجة وأولاد تزوج الأكبر من ولده بامراته اذا لم تكن أمه . وسوف نتحدث عن تفسير هذه الممارسات فيما بعد .

ونعرف من ابن فضلان أن هؤلاء الترك لا يذبحون الحيوان ، وانما يضرب الواحد منهم رأس الشاة حتى تموت .

ويصف شدة جفائهم وأن أحدا من المسلمين لا يقدر أن يجتاز بلدهم حتى يجعل له منهم صديقا ينزل اليه ويحمل له بعض الهدايا .

ويصور كذلك رسوم هيئتهم ، فيقول بان الترك كلهم ينتفون لحاهم الا أسبلتهم « شواربهم » : « وربما رأيت الشيخ الهرم منهم ، وقد نتف لحيته وترك شيئا منها تحت ذقنه وعليه البوستين ، فاذا رآه انسان من بعد لم يشك انه تيس » .

ومن عاداتهم في التحية : « اذا أكرم الرجل الرجل سجد له » .

***

مراسم المرض والموت :

ونعرف مما يقصه « ابن فضلان » شيئا عن نظرتهم الى الموت وتصورهم له ؟ فان التركي اذا

دخل « الجرجانية » نزل ضيفا عند أحد الاصدقاء الذين اجتازوا بلده من قبل ، فاذا حدث ومات التركى هناك • انتظر الغزية قافلة المسلمين فان وجدوا هذا الصديق قتلوه ، وقالوا : « أنت قتلته بحبسك اياه ، ولو لم تحبسه لما مات » • وكذلك ان سقاه نبيذا فتردى من حائط قتلوه به ، فان لم يكن فى القافلة عمدوا الى أجل من فيها فقتلوه •

ومن عاداتهم عزل المرضى بعيدا فى خيمة لا يزال فيها المريض حتى يبرأ أو يموت ، فاذا كان المريض عبداً أو فقيراً رموا به فى الصحراء وارتحلوا عنه •

« واذا مات الرجل منهم حفروا له حفيرة كبيرة كهيئة البيت وعمدوا اليه فألبسوه قرطقه ومنطقته وقوسه •• وجعلوا فى يده قدحا من خشب فيه نبيذ ، وجاءوا بكل ماله فجعلوه معه فى ذلك البيت ، ثم أجلسوه فيه فسقفوا البيت عليه ، وجعلوا فوقه مثل القبة من الطين ، وعمدوا الى دوابه على قدر كثرتها ، فقتلوا منها مئة راس الى مائتى رأس الى رأس واحد ، وأكلوا لحومها الا الرأس والقوائم والجلد والذنب فانهم يصلبون ذلك على الخشب • وقالوا : هذه دوابه يركبها الى الجنة » • فان كان قتل انسانا وكان شجاعا نحتوا صورا من خشب على عدد من قتل وجعلوها على قبره ، وقالوا : هؤلاء غلمانه يخدمونه فى الجنة (١) •

وقبل أن نتابع ابن فضلان فى رحلته ينبغى ان نوضح ما ذكرناه عن « الغزية » ، الذين تحدث عنهم ابن فضلان ، فانهم كما يقول المؤرخون قد سكنوا بالقرب من بخارى منذ القرن الرابع ، ومشوا على أطراف الفولجا والى الدانوب بعد ذلك،

(١) ٢٠٠ ـ ٢٠٢ المخطوطه •

وعمروا شرقى أوربا، وقد جاء منهم السلاجقة(٢)

ونعلم من المصادر الصينية أن الغز المقيمين غربا كانوا ينقسمون الى عشر قبائل خمس منها تقيم شمال نهر « ايله Ili » ، وخمس منها فى جنوبه وتسمى هذه القبائل العشر « او ن اوق » اى السهام العشرة • وقد أقام الغز بمنغوليا فى القرن السادس دولة بدوية كبرى ، ولكنهم بعد ان هاجروا الى الغرب فقدوا أسس تشكيلات الدولة •

وطبقا للكتب الجغرافية العربية فى القرن العاشر الميلادى كان يوجد ثلاثة اقوام من الترك فى الارض الممتدة من بحر الخزر الى حدود الصين هم : الغز ، وينتشرون فى الأراضى الممتدة من بحر الخزر الى أواسط مجرى سيرداريا (جيحون)، والقارلوق وينتشرون فى الاراضى التى تمتد الى مسيرة عشرين يوما شرقى « نوغانه » •

والتغزغز أو طوقوز ـ أو غوز ، ويسكنون الأراضى التى تبدأ من حدود أراضى القارلوق وتمتد حين الصين •

ويمكن أن نفسر ما لاحظه ابن فضلان عن حياتهم البدوية فى ضوء ما قاله احد الدارسين عن هذه القبائل من أن الجماعة فى مثل هذا الدور من أدوار التطور تكون من القوة بحيث تنفذ اراداتها دون وجود سلطة تنفيذية ، بل تجرى أمورهم طبقا للعرف الذى تولده علاقات العشائر بعضها ببعض دون حاجة الى عقد ميثاق او الى تكوين جهاز ادارى •

وفيما يتصل بالمعتقدات التى اشار اليها ابن فضلان فان بعضها يمكن رده الى المعتقدات

(٢) تأثر الأتراك الغز بالبوذيه • وعرفوا المسيحية والاسلام بواسطة خوارزم وقد أسلم قسم منهم فى القرن العاشر •

الشامانية التى تظهر فى مراسم الجنائز والدفن عند الترك •

ولقد ظل الترك يعتقدون فى الآلهة (اوماى) المذكورة فى نقوش أورخون (١)، وكانت روحا يحفظ الأجنة فى بطون أمهاتها • وقد وردت ايضا كلمة « يوغ » وهو اصطلاح قديم ومعناه (ذكرى الموتى) ، وكانت تطلق كذلك على المآدب التى تقدم بعد دفن الميت مدة ثلاثة أيام أو سبعة

وتذكر هذه النقوش أيضا اشارات الى عبادة السماء والأرض عند الترك ، كما أن نقوش «نيسى» تذكر كلمتى « ته كرى » و « بل » التى تعنى أحد الأرواح « الجن » التى يقدسها الشامانيون ويفسر هذا رواية ابن فضلان عن تعبير « بيرتنكرى » التى سمعها عند الغز ، ولم يكن لدى الترك تصور لمعنى « الملك » •

أما فيما يتصل بالتماثيل الخشبية التى وصفها ابن فضلان ، والتى كان الغز يضعونها بجوار قبور الجند فقد عزت الروايات المختلفة هذه القصة • وهذا النوع من التماثيل كان يسمى « بالبال Balbal » ، وهى من حيث الشكل نفس التماثيل التى يسميها الروس « المراة الصخرية » ، والتى توجد فى مساحات شاسعة فى مناطق الاستبس الروسية ، وقد أثبتت البحوث أنها من أصل تركى •

وتتحدث المصادر البيزنطية بأن الرؤساء العسكريين الذين كانوا يقعون فى أسر الترك كانوا يذبحون عادة الى جوار قبر الخان ، ولا شك فى العالم الآخر خدما لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم (٢) .

والعقيدة الشامانية حد فاصل بين ديانة الشعوب البدائية وديانة الشعوب المتحضرة • وهى فى أن أساس هذا التقليد يرجع الى عقيدة تجدها عند شعوب أخرى شامانية، وهى أن القتلى يصبحون كشبيهاتها من ديانات البدائيين لا تقوم على اسس أخلاقية ، ولا يعنى ايمانهم باليوم الآخر انهم يؤمنون بالحساب ؛ ولذلك فان القاتل عندهم لا يخاف عقابا يوم القيامة ، بل يعتقد بأن منزلته فى ذلك اليوم تزداد ارتفاعا بزيادة عدد من قتلهم (٣) .

أما فيما يتصل بعزل المرضى ، فهى ممارسة قديمة شاعت بين الهنود الأمريكيين ، ووجدت أيضا عند القبائل القوقزية فى الأزمنة الحديثة ، وسوف يشير اليها ابن فضلان عند حديثه عن الروسية • وهى تعود بالطبع الى الجهل بسبب المرض وخوف العدوى أو الى السحر او غير ذلك (٤) .

أما عادة عقر الدواب على قبور الموتى التى سلفت الاشارة اليها فهى عادة لها نظائر فى اماكن أخرى • فمن عادات العرب فى الجاهلية مثل هذه الممارسة الناشئة عن الاعتقاد بأن من عقرت مطيته على قبره حشر عليها ، ويؤيد ذلك قول الشاعر القديم : « واحمل أباك على بعير صالح » • وكانت هذه الممارسة تتمثل أحيانا فيما يسمى بحبس البلايا ، وهى شد الناقة الى قبر الميت ، ويعكسون رأسها بوليه وهى البرذعة ، فان أفلتت لم ترد عن ماء ولا مرعى ، ويزعمون أنهم انما يفعلون

(١) تتناول هذه النقوش التى اكتشفت فى منتصف القرن التاسع عشر ــ الفترة من (٦٣٠ الى ٦٨٠) من تاريخ الترك •

(٢) سوف نعود الى الحديث عن هذه الممارسة فميا بعد

(٣) تاريخ الترك .

(٤) C.S. Coon : A Reader in General Anhropology.

ذلك ليركبها صاحبها في الميعاد ليحشر عليها ، وفى ذلك يقول عويمر النبهانى لابنه : أبنى لا تنس البلية انها لأبيك يوم نشوره مركوب .

وقد اعتذر أحد الشعراء عن عدم مقدرته الأداء لهذه الممارسة كما كان يفعل الفرسان حين يمرون بقبر « ربيعة بن مكدم » الذى حمى ظعائن بنى كنانة فيعقرون نوقهم تعظيما له ، ويقول متحدثا عن ناقته :

لولا السفار وبعد خرق مهمه
لتركتها تجثو على العرقوب (١)

أما فيما يتعلق بمعتقدات الأتراك حول الماء وتحريم الاستحمام فيه ، فهى ممارسة قديمة عرفت عند الايرانيين القدماء وأيا كان نوعه عذبا أم ملحا . ويذكر « المقدسى » أن الزردشتية اذا غسلوا أيديهم على اثر الطعام لم يدخلوا الماء أفواههم لأنه من الاستخفاف به . ويغسلون الشفاه فحسب . وأشار أيضا الى أن من البراهمة طائفة يعبدون الماء ويزعمون أن معه ملكا (٢) .

ولقد كان نهر « جيحون » من الأنهار المقدسة عند الايرانيين ، وقد أشار « استرابون » وهيرودت الى أن الايرانيين لا يغسلون أجسامهم فى الماء الجارى ، ولا يلقون فيه الجيفة ولا القاذورات ، وكانوا يقدمون القرابين لحارس الماء ، وكان أهل جرجان يقدمون القرابين فى المكان الذى ينبع فيه الماء من الصخر ويصب فى البحر(٣)

(١) انظر : مطهر بن طاهر المقدسى : كتاب البدء والتاريخ (باريس ١٩١٩) وأيضا : قصص الحيوان ؛ د . عبد الرزاق حميده . القاهرة ١٩٥١ . والفروسية فى العصر الجاهلى ! د . سيد حنفى (أقرأ - ١٩٦٠)

(٢) كتاب البدء والتاريخ .

(٣) د. عبد النعيم حسنين (المجلة يوليو ١٩٥٧)

وتقديس المصريين للنيل معروف منذ اقدم الأزمنة ، وكانت تصنع له التماثيل التى تمثله باعتباره معبوداً ، وكانت النساء يلتمسن منه البركة فى ليلة الفيضان ويقمن بممارسات مختلفة ، فى هذا الصدد (٤) .

وفى افريقيا الغربية نجد عادة تقديس النهر ومائه ، كما أن بعض عشائر الدنكا بأعالى النيل تعتقد أن الماء هو جدهم الأعلى ، ولذلك فانهم لا يستعملونه الا طبقا لقواعد دقيقة (٥) .

ومهما يكن من أمر فان عادة عدم استعمال مياه النهر للغسل والاغتسال ظلت قائمة بين الترك حتى بعد دخول الاسلام بحقبة طويلة ، اذ نجد أن السلطان بيبرس - الذى كان متزوجا من ابنة « بركة خان » حاكم المغول فى القرن الثالث عشر - يوصى سفراءه الذين أوفدهم الى صهره ألا يغسلوا ملابسهم فى الأوردا (٦) .

ونجد أيضا فى « الياساق » وهو دستور التتار الذى وضعه جنكيزخان لقومه بعد اختياره سيدا لهم سنة ١٢٠٦ م . بقايا كثير من هذه العادات التركية تظهر على نحو ما . مثل اباحة شراء الزوجة ، وتقسيم الطعام بالتساوى فلا يجوز لأحد أن يتمتع بالشبع دون أصحابه ، ومثل تحريم غسل الثياب بل يجب أن تلبس حتى تبلى ، كما نص « الياساق » على عدم ذبح الحيوان ، بل تكتف قوائمه ويمرض قلبه الى أن يموت ثم يؤكل لحمه ، « وأن من ذبح حيوانا كذبيحة المسلمين

(٤) انظر ! The Nile : W. Budge, 1898. ومصر ومجدها الغابر لمرجريت مرى ترجمة : محرم كمال القاهرة ١٩٥٧ .

(٥) الديانات فى أفريقيا السوداء : هوبير ديشان . ترجمة : أحمد صادق حمدى ال ١٠٠٠ كتاب (٥٢)

(٦) تاريخ الترك .

ذبح » ونجد طابع الخشونة واضحاً في أخلاقهم وحروبهم ، وكان من بين معتقدات التتار عبادة قوى الشر من الجن والشياطين ، وعبادة الأسلاف (١).

وقد بقي أن نشير الى ممارسة « الزواج بالارث » التي أشار اليها ابن فضلان ، وهي ممارسة كانت شائعة بين بعض الشعوب القديمة. فكان من المعروف عند الحيثيين أنه اذا توفى الرجل فأرملته تزوج من أخيه فان لم يوجد فتكون لأبيه، فاذا توفى فلابن أخيه أو أخته . وهي في ذلك شبيهة بالقانون العبرى في هذا المجال وتوضحها قصة يهوذا وعير ، وقصة روث المؤابية . كذلك فان هذه الممارسة كانت معروفة في الجاهلية حتى أبطلها الاسلام ، فكان وارث الميت يسبق فيلقي على امرأة الأب أو الابن أو الأخ ثوبه فيكون أحق بها الا اذا سبقته فذهبت الى أهلها فتكون أحق بنفسها (٢) .

***

ونعود الآن الى « ابن فضلان » ، فنراه يتابع رحلته ، ويحاول الغزية منع البعثة من المضي في طريقها لأنهم ظنوا أنهم ذاهبون لتأليب الخزر عليهم ، ويتشاورون في قتلهم ، وبعد لأي يأذنون للوفد بالسفر فيمضي في طريقه ويعبر سلسلة من الأنهار يصف ابن فضلان طريقة عبورها حتى يصل الى طائفة أخرى من الترك هم : «البجناك» (٣) .

ويقول ابن فضلان : « واذا هم (نزول) على ماء شبيه بالبحر غير جار واذا هم سمر شديدو السمرة ، واذا هم محلقو اللحى ، فقراء بخلاف الغزية ... فنزلنا على « البجناك » يوما واحدا ثم ارتحلنا .. » .

« الباشغرد »

ثم يصف « ابن فضلان » عبور الأنهار التي صادفتهم في طريقهم حتى يصل الى « الباشغرد » فيقول : « فحذرناهم أشد الحذر . وذلك انهم شر الأتراك وأقذرهم (٤) وأشدهم اقداما على القتل ، يلقى الرجل الرجل فيفرز (٥) هامته ويأخذها ويتركه » .

وقد دهش ابن فضلان من معتقداتهم الغريبة، فقد رأى كل واحد منهم « ينحت خشبة على قدر الاحليل ويعلقها عليه ، فإذا أراد سفراً أو لقاء عدو قبلها وسجد لها ، وقال : « يا رب افعل بي كذا وكذا » ، ولما استوضح ذلك من بعضهم علل بأنها سبب النشأة .

ثم يقول : ومنهم من يزعم أن له اثنى عشر رباً ، يتمثل في كل منها عنصر من عناصر الطبيعة: الشتاء والصيف ، والمطر ، والريح ، والشجر ، والماء ، والليل ، والنهار ، والموت ، والناس ، والدواب ، ويرون أن الرب الذي في السماء أكبرهم .

كذلك فقد رأى طائفة منهم تعبد الحيات، وطائفة تعبد السمك ، وطائفة تعبد الكراكي . « فعرفوني أنهم كانوا يحاربون قوما من أعدائهم فهزموهم، وأن الكراكي صاحت وراءهم ففزعوا وانهزموا بعد ما هزموا ، فعبدوا الكراكي لذلك .

---

(١) العرب والتتار .

(٢) الحثيون : أ . د . جرني . ترجمة : د . عبد القادر محمد . القاهرة ١٩٦٣ . وأيضا من الأدب العبرى ، د . فؤاد حسنين . القاهرة

(٣) ٢٠٢ - ٢٠٣ من المخطوطة .

(٤) في ياقوت : واقدرهم بالدال المهملة . ويرجع ذلك الدكتور الدهان ص ١٠٧

(٥) عند ياقوت : يعزز بمعنى فسخ وشق وكسر . هامش ١٠٨

والباشغرد هو الاسم العربى للباشقر والمجر ، وكانوا يسكنون ما يعرف الآن بناحيتي اوفا ، وأورنبورج • والباشغرد قليلو العدد ـ كما ذكر [illegible] أخرى • من أنهم يبلغون ألفى نسمة • وأرضهم مغطاة بالغابات كما هو الحال فى بعضها الآن • وكانوا خاضعين للبلغار وان كانوا قد ظلوا وثنيين • الى أن جاء التتار فاسلم معظمهم (١) •

ونود الآن أن نشير الى معتقداتهم التى وصفها ابن فضلان ، ونرى أنه فيما يتصل بعضو التذكير أن نذكر ما رواه « المقدسى » عن « الكاباليه » من البراهمة الذين كانوا يتخذون صنما على مثل هذه الهيئة يعظمونه باعتباره سببا للنسل .

ونجد فى عبادة « شيفا » الهندية أنها كانت تمثل أحيانا فى صورة أعمدة حجرية صغيرة ترمز لعضو الذكورة • وتقديس الهنود للرموز التى تشير الى النسل والخصوبة تدل عليه هذه التماثيل الرمزية الموجودة فى معابدة الهند (٢) •

وكثيرا ما تظهر هذه الرموز فى رقص الطقوس التى تؤدى من أجل زيادة الخصب ، وتجرى مثل هذه الرقصات أحيانا حول تمثال لمذكر ، واحيانا يحمل الراقصون رمزا جنسيا فى مواكب الرقص (٣) •

أما عبادة الطبيعة فقد وجدت فى مناطق كثيرة من العالم ، وفى مظاهر مختلفة فقد لعبت عبادة الأشجار مثلا دوراً هاما فى التاريخ اندينى للجنس الآرى فى أوربا • وقد ظلت عادة تزويج النساء والرجال للأشجار قائمة فى الهند وفى اجزاء أخرى من الشرق • وما تزال باقية مثل هذه المعتقدات فى صور الاحتفالات الزراعية فىمناطق كثيرة فى العصر الحديث ، ومثل هذه الشعائر كانت فى نشأتها طقوسا سحرية تهدف الى ضمان تجدد الطبيعة (٤) •

أما بالنسبة للعناصر الطبيعية مثل الريح والرعد والمطر وما الى ذلك فيمكن ردها الى الخوف باعتباره أهم الدوافع المؤدية الى خشية الطبيعة وعبادة الأرواح الكامنة فى جميع نواحيها ، ومن ذلك اجلال الأرض وما فيها من قدرة على الانتاج والتوالد ، والسماء وما فيها من قوى خفية تقوم عناصرها بعملية الوئام مع الحياة على الأرض ، وترتبط الأرض بالسماء لأنهما شطران من وحدة كونية عظيمة •

وما وصفة ابن فضلان عند الترك نجد له نظيرا فى عقائد الصين البدائية فىعبادة الطبيعة « وعبادة الأسلاف وعظماء الرجال التى كانت تدعو اليها الكنفوشية » (٥) كذلك فان أساس الشامانية ـ التى كانت منتشرة فى سيبيريا وبلاد المغولالغربية

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ؛ وقد تقلب اسمهم فى مختلفه أشرنا الى بعضها ص ١٥ ، ويقول صاحب كتاب تلفيق الأخبار : انهم سموا فى وقت ما : بوزقير لاقامتهم فى البرية المسماه بهذا الاسم ومعناها البرية البيضاء (وهى ما بين جبال أورال والفولجا) ثم حرفت بوزقير الى باشقير ، وباشقرد ، وباشجرد وغير ذلك • ويرى انهم أسلاف المجر أو من جنسهم • والمجر (الماجار ، ومجغر ، ومجغرد) كانوا فى القرن الخامس قرب منابع نهر ايل (الفولجا) ثم اقتربوا فى القرن السابع والثامن والتاسع من شطوط نهر دون وأوناق • ويضيف بأن المؤرخين متفقون على أن أصل الماجار والبلغار والاوار والخزر والباشقرد من جنس واحد •

(٢) ول ديورانت : قصة الحضارة ، ترجمة : د • زكى نجيب محمود ٣/١٠ •

(٣) انظر كتابنا : الفلكلور ما هو ؟ القاهرة ١٩٦٥ •

(٤) J.G. Frazer : The Golden Bough, London, 1957.

(٥) قصة الحضارة (الشرق الأقصى : الصين) •

يقوم على عبادة الطبيعة والأرواح المدبرة لها (١) .

وعبادة الحياة Animisme التى نجد أمثلة كثيرة لها فى أفريقيا تنهض على الاعتقاد بوجود أرواح خفية تسرى فى الطبيعة بجميع أجزائها . وبصفة عامة فان الانسان فى أطوار الحضارة الأولى كان يستشعر قوى الطبيعة التى لم تقتصر بالنسبة له على الأجرام السماوية والرياح والعواصف بل تعدت الى العناصر الساكنة كالجبال والحصى مما جعله يعتقد أن هذه الأشياء لها ارادة وشعور . بل وأبعد من ذلك فقد تخيل أن لبعض الثمار حواس خارجية (٢) .

وأما تقديس أنواع معينة من الحيوان كالأسماك والحيات أو من الطيور التى تحدث عنها ابن فضلان فان لها أيضا نظائر كثيرة فى جميع الأقطار ، فالأفاعى مثلا مقدسة فى الديانات الزنجية وديانة قدماء المصريين والهنود والصينيين . كما أن الأسماك أو أنواعا منها تحظى بتوقير شديد عند بعض الشعوب مثل الهنود الأمريكيين والاسكيمو . والطيور أو أنواع منها حظيت بنفس المكانة مثل الصقر ، والحمامة ، التى كانت مقدسة عندالساميين وارتبطت بعبادة عشتروت ، وكانت أيضا من بين الطيور التى عبد العرب أصنامها فى الجاهلية (٣) .

وتصور البدائيين للحيوان قريب من تصورهم لعناصر الطبيعة . وارتباط الانسان بالحيوان قديم وتوقيره يرجع الى بعض منافعها الايجابية أو السلبية التى كان يأمل البدائيون فى الحصول عليها . والحيوان أو النبات كان يعد بسبب انه نافع للجماعة لأن الناس يشعرون باعتمادهم فى العيش عليه ، فالقبيلة الطوطمية التى تعيش على شاطىء البحر تقدس سمكة ، على حين أن القبائل الرعوية يقدسون ماشيتهم .

وأخيرا نود أن نضيف الى أن الترك كانوا قديما يستخدمون تقويما أساسه اثنى عشر حيوانا ، (فيقولون عام النهد ، وعام النمر ، وعام الحصان ، وعام الثعبان الخ) .

وهنالك أسطورة ترتبط بهذا التقويم خلاصتها أن ملك الترك خرج للصيد فجرت الحيوانات التى تبعها وألقت بنفسها فى النهر وعبرته بالترتيب ، وكان هذا الترتيب فيما بعد هو ترتيب الحيوانات فى ذلك التقويم (٤) .

***

عند الصقالبة

بعد ذلك نجد ابن فضلان يغادر الباشغرد ، ويعبر طائفة من الأنهار فيصل الى بلاد البلغار بعد سفر دام سبعين يوما منذ ان غادر الوفد « الجرجانية » . ويصف ابن فضلان طريقة استقبال الوفد فقد أرسل ملك « الصقالبة » كما يقول : « الملوك الأربعة الذين تحت يده واخوته وأولاده فستقبلونا ومعهم الخبز واللحم والجاورس وساروا معنا » . وكان الوفد على مسيرة يوم وليلة من مقر الملك ، « فلما صرنا منه على فرسخين تلقانا هو بنفسه ، فلما رآنا نزل فخر ساجدا شكرا لله ــ جل وعز ــ وكان فى كمه دراهم فنثرها علينا ، ونصب لنا قبابا فنزلناها .

ثم يصف ابن فضلان مراسم الاستقبال بالتفصيل والتى جرت فى احتفال مهيب لقراءة

(١) تاريخ الحضارة الاسلامية .

(٢) C.S. Burne : The Handbook of Folklore London, 1913.

(٣) محمد محمود جمعة . النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ط . القاهرة ١٩٤٩ .

(٤) تاريخ الترك .

كتاب الخليفة وتقديم الهدايا التى حملها الوفد معه من بغداد • ويلاحظ ابن فضلان ان الملكة كانت تجلس الى جنب الملك فى الاحتفال •

وقبل أن نفيض في الحديث عن العادات ومظاهر الحياة الطبيعية والاجتماعية عند البلغار كما صورها ابن فضلان ، يحسن أن نرسم صورة موجزة لهم

***

ورد اسم البلغار لأول مرة فى التاريخ الكنسى لزكريا الطبيب حوالى سنة ٥٥٥م بين قبائل القوقز الرحل الذين يسكنون الخيام ويقتاتون بلحوم الماشية والأسماك • وفى القرن السابع كثرت الاشارات الى فروع البلغار ، ومنهم ذلك الفرع الذى تراجع حتى وصل الى نهر «ايتل» الأوسط، بسبب ضغط الأعداء عليهم نتيجة اعتناقهم الاسلام• ويقرر العلماء بأنه ليست لديهم سوى رواية واحدة أصيلة عن البلغار فى القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) هى رسالة ابن فضلان (١) .

ولقد كان بلغار الفولجا وهم جيران الخزر اكثر اتصالا بالمدنية الاسلامية ، وتدل العملة التى سكها البلغار المسلمون فى القرن العاشر على تأثرهم بالسامانيين •

وكان للبلغار ، حسب رواية الجغرافيين العرب فى القرن العاشر ، مدينة بلغار ومدينة سوار (٢) على بعد خمسين ميلا (أو كيلو على الأرجح) ، والحق أن هذه المدن كانت مضارب بدو أكثر منها مدنا ، اذ كانت عبارة عن اكواخ وخيام من البلد، لم تكن تسكن صيفا •

وفيما يتعلق بتسمية ابن فضلان ملك البلغار بملك الصقالبة فقد كان العلماء يعتبرون ذلك خطأ من ياقوت ثم تبين بعد اكتشاف مخطوطة ابن فضلان أنه قد استعملها فى نسخته الأصلية ، وقد استبعد الدارسون أن يكون السكان فى غرب الفولجا صقالبة حقيقيين ، وأغلب الظن أنهم كمثل بلغار الطونة نتاج اختلاط « الترك — جوفاشى » بالصقالبة •

وهنالك آراء كثيرة حول الوقت الذى اسلم فيه البلغار فذهب بعض المؤرخين الى أنهم اسلموا أيام المأمون أو الواثق ، ولكن يبدو أنهم اسلموا قبل ذهاب ابن فضلان اليهم بفترة قصيرة • ويقول «بارتولد» لقد نتج عن العلاقات التجارية بين خوارزم وحوض نهر فولجا أن اعتنق بلغار ايديل الدين الاسلامى منذ القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) • وكانت صادرات البلغار والبلاد المجاورة لها فى ذلك الحين هى الفراء والجلود المصنوعة صناعة دقيقة ، والعسل وشمعه والسمك (٣) •

عادات البلغار :

يصف ابن فضلان بدقة عادات البلغار الاجتماعية ، طريقة الأكل وتبادل الأنخاب ، والتحية ، وعادات الزواج وغير ذلك • ويصور المأدبة التى أقامها ملك البلغار للوفد وكانت تتألف من اللحم المشوى فقط • وقد ابتدأ الملك فاخذ سكينا وقطع لقمة وأكلها ، وثانية وثالثة ثم اجتز قطعة دفعها الى ... سوسن ... الرسول فلما تناولها

---

(١) ليس هناك على التحقيق معرفة بأصل البلغار ، وقد تكونت منهم دولتان فى أوائل القرون الوسطى أحدهما على نهر الفولجا • والأخرى على نهر الدانوب .

(٢) أشار صاحب كتاب (تلفيق الأخبار) الى احتمال أن تكون « سوار » هى صمارا وكانت تقابل مدينة بلغار من الجهة الأخرى من نهر اتل •

(٣) تاريخ الحضارة الاسلامية .

جاءته مائدة صغيرة فجعلت بين يديه • وكذلك الرسم ، لا يمد أحد يده الى الأكل حتى يناوله الملك لقمة •• وعندما يتناولها تجيئه مائدة لا يشركه فيها أحد • ثم يقول : فلما أكلنا دعا بشراب العسل وهم يسمونه « السجو » ليومه وليلته فشرب قدحاً ثم قام قائما فقال : « هذا سرورى بمولاى أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه » • وقام الملوك الأربعة وأولاده لقيامه ، وقمنا نحن أيضا حتى اذا فعل ذلك ثلاث مرات • ثم انصرفنا من عنده (١) •

ويصف ابن فضلان علاقة الملك بشعبه بانها علاقة أبوية ، وأنه كان يتنقل فى عاصمته راكبا بمفرده من غير حرس ، فاذا رآه أحد من رعيته وقف وخلع قلنسوته وجعلها تحت ابطه حتى يمر عنهم • وكذلك كانت تحيتهم له عند دخولهم عليه يأخذون قلانسهم ويومئون برءوسهم اليه (٢) •

وقد أشار ابن فضلان الى الضرائب التى يؤدونها الى الملك • فنعرف انهم لم يكونوا يدفعون له شيئا مما تغله أرضهم ، غير أنهم كانوا يؤدون اليه فى كل سنة من كل بيت جلد سمور• وكانوا يعطونه حصة من غنائم الحرب ، واذا اقدم شخص على الزواج فانه يقدم حصانا يضم الى خيل الملك • كذلك كانوا يقدمون له مقدارا من نبيذ العسل عند اقامة الولائم بقدر الوليمة

وقد أشار ابن فضلان الى أن اكثر طعامهم هو « الجاورس — حب يشبه الأرز » واللحم ، والحنطة والشعير كثيرة عندهم • وهم لا يعرفون حفظ الطعام بل يجعلونه فى حفر فى الأرض تؤدى الى فساده • ولا يعرفون الزيت ولا الدهن ، وانما يستخدمون دهن السمك فى كل شىء • وعسل النحل كثير فى غياضهم • ويفهم مما ذكره ابن فضلان عن عاداتهم وأفكارهم أن ثقافتهم كانت لا تزال متخلفة ، وانهم كانوا على اتصال غير وثيق بالحضارة الاسلامية •

ولقد استاء ابن فضلان من نزولهم عراة الى النهر رجالا ونساء ، وأنه حاول أن يستتر النساء من الرجال فلم يستو له ذلك •

وقد ذكر من رسومهم أن الجد يتولى تربية حفيده دون أبيه حتى يصير رجلا ، وأنه اذا مات منهم رجل ورثه أخوه دون ولده ، وقد قام « ابن فضلان » بتعليمهم كيفية المواريث •

الممارسات والمعتقدات :

ومن معتقداتهم الخرافية انهم يتبركون بعواء الكلاب • وأنهم يتركون البيت الذى تصيبه الصاعقة — وما اكثر الصواعق فى بلدهم — يذرونه على حالته بجميع من فيه من رجل ومال وغير ذلك حتى يتلفه الزمان ، ويقولون : هذا بيت مغضوب عليه » • واذا رأوا انسانا له حركة ومعرفة بالأشياء ، قالوا : « هذا حقه أن يخدم ربنا » فأخذوه وجعلوا فى عنقه حبلا وعلقوه فى شجرة حتى يتقطع » • واذا كانوا يسيرون فى طريق فأراد أحدهم البول ، فبال وعليه سلاحه انتهبوه ، وأخذوا سلاحه وثيابه وجميع ما معه •

وقد أشار ابن فضلان الى العقوبات الجنائية عندهم • وهى القتل لمن يقتل عمداً ، أما القتل الخطأ فانهم يضعون الجانى فى صندوق ويسمرونه عليه ، ثم يعلقونه بين السماء والأرض ويتركونه

---

(١) ورقة ٢٠٣ •

(٢) كان البلغار كاهل خوارزم يغطون رءوسهم بالقبعات المرتفعة التى يسميها العرب القلانس • وهذه التحية شبيهة بما يفعله الأوربيون الآن •

كذلك . وهم يقتلون السارق أيضا ، ويقطعون الزاني والزانية بالفأس ثم يعلقون كل قطعة منه ومنها على شجرة .

ومن ممارساتهم الجنائزية أن الرجال – وليس النساء – هم الذين يبكون على الميت ، وينصبون بباب قبته راية ويحضرون سلاحه فيجعلونها حول قبره ، ولا يقطعون البكاء سنتين ، فاذا انقضتا قصوا شعورهم ، ودعا أقرباء الميت دعوة يعرف بها خروجهم من الحزن .

ولقد أفاض « ابن فضلان » في وصف طبيعة بلادهم بأشجارها ونباتها وثمارها التي لم يعرفها من قبل . وأدهشه كثيرا قصر الليل الشديد وطول النهار عندهم ، وأشار الى بعض الظواهر الطبيعية الغريبة التي عدها في باب العجائب ، فقد رأى ذات ليلة احمرارا شديدا في الأفق وسمع أصواتا وهمهمة عالية ، ونظر فرأى الغيم الأحمر مثل النار ، وأشباحا تقتل بالسيوف والرماح ثم يقول : « وفزعنا من ذلك وأقبلنا على التضرع والدعاء » . وكان أهل البلد يضحكون منهم ويتعجبون من فعلهم (١) . » وقد أخبره الملك أن أجداده كانوا يقولون : ان هؤلاء من مؤمني الجن وكفارهم ، وهم يقتتلون كل عشية . وقد رد بعض الدارسين ذلك الى سذاجة في ابن فضلان وعقلية تقبل الخيال . غير أن « بارتولد » في حديثه عن معتقدات الترك القديمة يذكر أن الأتراك أثناء حروبهم كانت الجن تشارك في الحرب ، فتنشب بين الجن في كل موضع من مواضع المتحاربين معركة قبل أن يشتبك الفريقان بيوم ، وكان المحاربون لا يغادرون خيامهم ليلة

(١) ورقة ٢٠٥ .

القتال خوفا من سهام الجن ، وكان عساكر الجن هؤلاء يسمون « جادى » (٢) .

ونود أن نختم هذا الفصل بالحديث عن احد أسباب البعثة وهو بناء حصن يتحصن فيه البلغار من أعدائهم ، ويقصد بهم ملك الخزر الذي كان يفرض ضريبة على البلغار ، وكان يحتفظ بابن ملك البلغار رهينة عنده ، وقد رفض ملك البلغار أن يزوجه بابنته لأنها مسلمة وملك الخزر يهودي فأخذها غصبا فماتت عنده ، فوجه يطلب بنتا أخرى (٣) .

***

« الروسية »

يقول ابن فضلان : « ورأيت الروسية وقد وافوا في تجارتهم ، ونزلوا على « نهر اتل » فلم أر أتم أبدانا منهم كأنهم النخل ، شقر حمر لا يلبسون القراطق ولا الخفاتين (٤) (ولكن يلبس) الرجل منهم كساء يشتمل به على احد شقيه ، ويخرج احدى يديه منه . ومع كل واحد منهم فأس وسيف وسكين لا يفارقه جميع ماذكرنا .. ومن حد ظفر الواحد منهم الى عنقه مخضر شجر وصور وغير ذلك . » وكل امرأة منهم فعلى ثديها حقة مشدودة اما من حديد واما من فضة ، واما نحاس ، واما ذهب . على قدر مال زوجها ومقداره . وفي كل حقة حلقة فيها سكين

(٢) تاريخ الترك .

(٣) سنعود في نهاية البحث للحديث عن الخزر بالتفصيل .

(٤) القراطق = المعاطف القصيرة . والخفتان = صدرية تحت الثياب (انظر التحقيق ٨٦ – ٨٧) عن «دوزى .

مشدودة على الثدى أيضا • وفى أعناقهن اطواق من ذهب وفضة » (١) •

ولقد أشرنا فى مقدمة الحديث الى ان ابن فضلان يقصد بالروسية التجار الاسكندنافيين الذين كانوا يفدون الى السوق التى كانت تقام على نهر اتل « كل مدينة ، ويباع فيها المتاع الكثير النفيس » •

وقد وفد هؤلاء التجار ليغتنموا التجارة الغنية القادمة من الهند والصين : الفراء والحرير والمعادن والجواهر والرقيق • وهؤلاء الشماليون الذين وصفهم ابن فضلان كانوا ينتمون الى حضارة سلفية اذا قيست بالحضارة الراهنة ، وكانوا من الناحية الجسمية جزءا من الفرع الوراثى الذى أنتج أسلاف كثير من الأمريكيين ، ويقول « كون C.S. Coon » ان انطباعات ابن فضلان ومشاهداته ، والتى هى أقدم نص معاصر معروف يصف الفارنجيين فى روسيا القديمة – هى انطباعات عربى متحضر قدم من حضارة قد تكون أرقى الحضارات فى عصره • ومن تعليق ابن فضلان على ملابسهم تعرف ان ملابس « الفايكنج Vikings » لم تكن متلائمة مع الطقس البارد كما كانت ملابس الاسكيمو •

ويقول ابن فضلان : وأجل الحلى عندهم الخرز الأخضر من الخزف ، وهم يساومون فيه ويغالون فى ثمنه • ويعتبر هذا من اقدم ما ذكر عن الخزر القاشانى التجارى ، الذى نعثر عليه فى أماكن مختلفة مثل الكونجو وبورنيو ، وتعتبر هذه الحبات علامات رئيسية على الانتشار الثقافى الذى كان يقوم به هؤلاء التجار فى هذه الحقبة•

ويصف ابن فضلان هؤلاء التجار بأنهم اقذر مخلوقات الله لا يغتسلون ولا يغسلون ايديهم من الطعام ، ويشتركون جميعا فى غسل وجوههم ورءوسهم فى اناء واحد بأقذر ماء يكون ، يضاف به عليهم واحداً اثر الآخر •

ويعلق « كون » على هذه القذارة التى صدمت العربى الرقيق بأنها تعكس اختلافا فى العادات• وقد ذكر المؤرخون العرب ان بغداد فى عصر ابن فضلان كان فيها ٢٧ ألف حمام ، وعلى الرغم من أنه قد يكون فى هذا الرقم مبالغة الا انه يدل على مدى التحضر السائد بين العرب فى هذه الحقبة (٢) • وقد استاء ابن فضلان من بذاءتهم فيما يتصل بالوظائف الجسدية • ويبرر «كون» ذلك بأن الفتيات كن أجنبيات وأن الشماليين كانوا بعيدين عن وطنهم •

عبادات الشماليين وممارساتهم فى المرض والموت:

يصف ابن فضلان عبادة هؤلاء التجار بالتفصيل ويشرح كيفية تقديمهم الخبز واللحم والبصل والنبيذ (٣) واللبن لتماثيل عبارة عن خشبة طويلة منصوبة لها وجه يشبه الانسان وحولها صور صغار ، وسجودهم لها وتضرعهم لكى تعينهم على بيع تجاراتهم ، وهو الوصف الوحيد الباقى والمفصل للشعائر الاسكندنافية القديمة •

كذلك فقد وصف بالتفصيل طريقة عزلهم للمرضى فى أكواخ صغيرة ، وهى – كما ذكرنا – ممارسة قديمة شاعت بين الهنود الأمريكيين • وأيضا عند القبائل القوقازية فى الأزمنة الحديثة ، وقد تحدثنا عن هذه الممارسة عند الغزية •

(١) كان انطوق – كما يذكر ابن فضلان – يستخدم كرمز للثروة ويمثل عشرة آلاف درهم •

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب •
(٣) قد تكون البيره •

أما الممارسة التى أدهشت ابن فضلان فافاض فى وصفها فهى الممارسة الخاصة بحرق الموتى والطقوس التى تصاحبها ، وقد بلغ من دقة وصفه أن استقى فنان روسى من وصف ابن فضلان لوحة للدفن توجد الآن فى احد متاحف لينجراد (١) ٠

وقد وصف ابن فضلان مراسم الدفن ووضع الميت فى سفينة تمهيداً لاحراقه واحراق بعض جواريه وغلمانه أحياء ، وتحدث عن طريقة تزيين الميت ووضع النبيذ والفاكهة والريحان بين يديه ، وقتل بعض الحيوانات من البقر والدواب والكلاب والدجاج وتقطيعها والقاء لحومها فى السفينة ٠ ثم يشرح طقوس اشعال النار فى السفينة وما يسبق ذلك وما يصحبه ٠ وقد يكون وصف ابن فضلان هو الوصف الوحيد ـ كما قال « كون » لشاهد عيان لمراسم الدفن فى السفن ، وهو يذكرنا بما أورده هيرودوت عن دفن احد الملوك الاسقوتيين ، والذى جرى ايضا على ضفاف الفولجا ٠ وكان السومريون والمصريون القدامى فى عهود ما قبل الأسرات ، والمغول والهنود الحمر ٠ وبعض سكان غرب افريقيا حتى العصور الحديثة ٠ يضحون بالبشر فى جنازات موتاهم المرموقين ٠ وفى الهند كانت أرامل الرجال المهمين يحرقان معهم حتى الأزمنة الحاضرة ٠

وعندما تتطور فى أحد المجتمعات سلطة دينية تحت ظروف معينة الى حد أن يصبح موت احد الأفراد سببا فى تشتيت توازن رفاقه فان الشعائر الجنائزية يجب أن تكون مؤثرة ، وليس هناك ما يفوق فى الشعائر عنصر التضحية بالبشر فى اعطاء مثل هذه الشحنة العاطفية ٠

(١) الرحالة العرب ٠ وانظر مقدمة الدكتور الدهان ٠

وقد يكون الغرض من هذه التضحية كما مر بنا من قبل هو امداد الميت بخدم وحاشية ، او ارسال رسل تتيح له معرفة الأشياء التى تحدث فى دنياه ، أو يكون الغرض هو اعطاء القوة للميت بواسطة دم هذه المخلوقات الحية أو بواسطة حياتها نفسها ٠ ونحن نجد أن هذا التقليد حين اختفى من مصر والعراق استبدل به تزويد صاحب المقبرة بعدد كبير من التماثيل الحجرية يمثل كل واحد منها خادماً بعينه يقوم بعمله الذى اعتاده فى الحياة الدنيا ٠ وكان المصريون القدماء يعتقدون أن هذه التماثيل سوف تدب فيها الحياة المادية بمجرد تمتمة النصوص السحرية فوق المقبرة ٠

وقد ذكر الجغرافيون العرب فى القرن الرابع اشارات مجملة عن حرق الروس للموتى وما يصاحب ذلك من تضحيات بشرية (٢) ٠

ويفسر ابن فضلان تعليلهم لممارسة الحرق بما أخبر به من أن النار تحرق الميت فى لحظة فيدخل الجنة من وقته وساعته ٠ ويشير أيضا الى

(٢) ابن حوقل ، والمسعودى ٠ انظر المقدمه السالفة ٠ (ولمعرفة تفصيلات اكثر عن هذه الممارسات وما يصاحبها من طقوس والشعوب التى كانت تمارسها راجع (انتصار الحضارة ، تاريخ الشرق القديم لبرستد ترجمة د ٠ أحمد فخرى) و (فى موكب الشمس د ٠ أحمد بدوى) الحيثون : لجزلى ، (تاريخ الترك لبارتولد) و (الشعوب البدائية فى وقتنا الحاضر لبيدج ترجمة : محمود محمد مرسى ، (الديانات فى أفريقيا السوداء لهوبير ديشان ترجمة : أحمد صادق حمدى) ، (مصر القديمة وافريقيا الزنجية : د ٠ عبد المنعم أبو بكر) ، « كتاب البدء والتاريخ للمقدسى » (قصة الحضارة لديورانت نشأة الحضارة والهند وجيرانها ، الشرق الأقصى (الصين) ، وانظر مادة قربان فى دائرة معارف القرن العشرين لفريدوجدى ! ودائرة المعارف الاسلامية ، ومادة Socripice فى دائرة المعارف البريطانية ٠ وفى ادارة معارف العلوم الاجتماعية ٠

أن ملك الروس من رسمه أن يكون معه في قصره اربعمائة رجل من صناديد أصحابه ، فهم يموتون بموته ويقتلون دونه • ويضيف بأن هذا الملك لا ينزل عن سريره فاذا أراد الركوب قدموا دابته الى السرير ، واذا أراد النزول قدموها أيضا حتى يكون نزوله على السرير • وقد يكون هذا متصلا بالممارسة المعروفة بالتابو الخاص بحظر مس الأرض على الأشخاص المقدسين • ولها نظائر كثيرة أفاض في وصفها فريزر في كتابه « الغصن الذهبي » •

عند الخزر :

ليس في مخطوطة ابن فضلان عن الخزر سوى ثلاثة سطور يمكن قراءتها • ثم سطرين مبتورين في نهاية الصفحة لأن بقية المخطوطة قد ضعت، وقد أثبت ياقوت ثلاث صفحات قال انه نقلها عن ابن فضلان ، وقد أشرنا الى أنها للاصطخرى • هذا وقد رجح الدكتور سامي الدهن في تحقيقه أن النصف الثاني من هذه الصفحات هو لابن فضلان برواية ياقوت (١) •

ومهما يكن من أمر فان ما بهب من معلومات ليس كثيرا ، وتعرف منها أن ملك الخزر كان يحمل لقب « خاقان » على عكس ملك البلغار • ونعرف أيضا بعض مراسم دفن الخاقان الأكبر - هذا الذي يعيش في عزلة عن الناس ويحكم من خلال خاقان أصغر منه مقاما - وأنه يدفن في بيت يجرى من تحته النهر حتى لا يصل اليه احد • وتضرب أعناق الذين يدفنونه حتى لا يدرى اين قبره • وأن هذا الملك له خمس وعشرون امرأة من بنات الملوك الذين يصاحبونه باخذهن طوعا أو كرها بالاضافة الى ستين جارية • وأن هنالك محظورات معينة تلتزمها رعيته نحوه ، فلا ينظرون اليه اذا خرج في موكبه لأنهم يخرون سجداً • وهذا النوع من « التابو » متصل بما أشرنا اليه آنفا • وأنه كمثل بعض الملوك المؤلهين يقتل بعد مدة معينة ، وهي هنا أربعون سنة ، « اذا جاوزها يوما واحدا قتلته الرعية وخاصته ، وقالوا : «هذا قد نقص في عقله واضطرب رأيه ••

ومرد هذه الممارسة هو اعتقاد الشعوب البدائية في ارتباط سلامتها بحياة مثل هذا الانسان المؤله، وأن مجرى الطبيعة رهن بحياته ، فأى وهن يعتريه يؤثر بدوره في حياة الناس والنبات والحيوان ، وتوقي ذلك يكون بقتله لكي تنتقل روحه الى خليفه قوى وهي في عنفوانها • وقتل الملك عند فترة محددة معلومة له نظائر كثيرة نجدها في الهند ، وعند الاغريق ، وفي التراث الاسكندنافي (٢) •

***

ولقد أشرنا الى الخزر اشارات متفرقة ، نود أن نضيف اليها بعض المعلومات التاريخية • ومنها أن مملكة الخزر كانت جزءاً من مملكة البدو التركية في القرن السادس ، وقد ذكرت دولة الخزر لأول مرة عام ٦٢٧ م باعتبارها حليفة قوية للبيزنطيين في حربهم مع الفرس ، ولم ينقل أمراء الخزر مقر حكمهم من سهوب القوقاز الشمالية الى المجرى الأدنى لنهر ايتل الا بعد نضالهم الفاشل مع العرب في بداية القرن الثاني للهجرة ، فتركوا عاصمتهم القديمة بداغستان وأسسوا عاصمة جديدة على مصب نهر ايتل (الفولجا)• ويقول ابن الأثير : ان مروان بن محمد

(١) انظر ص ١٦٩ من التحقيق •

(٢) راجع مقالنا عن الغصن الذهبي في المجلد السابع عدد ٤ تراث الانسانية •

تقدم فى فتوحه حتى بلغ البيضاء (وهو الاسم العربى للجانب الغربى لمدينة اتل التى اصبحت عاصمة الخزر فيما بعد (١) • وقد ذكر المسعودى خبر النجاء كثير من اليهود الذين جاءوا من امبراطورية الروم الى بلاد الخزر فى العهد الذى كتب فيه ابن فضلان رسالته ، وكانت اليهودية هى الديانة السائدة فى الخزر ، برغم وجود عدد كبير من المسلمين والمسيحيين • فقد كان فى « ايتل » • كما ذكر بعض الجغرافيين – أكثر من عشرة آلاف مسلم وكان بها مسجد جامع ، كما كان بها ثلاثون مسجداً آخر •

وقد علل بعض المؤرخين تسميتهم بالخزر بانه صغر عيونهم وضيقها وأن هذه التسمية جاءتهم من العرب فى بداية معرفتهم لهم •

***

وقبل أن نختم هذا العرض الموجز لرسالة ابن فضلان التى تضمنت كما رأينا كثيرا من المعلومات التاريخية والاثنوجرافية الهامة عن هذه القبائل والشعوب التى حفظ ابن فضلان ملامحها من الضياع ، نود أن نشير الى أنه برغم قيمة ماتضمنته رسالته من معلومات لم يحدثنا عن الجانب السياسى من هذه السفارة ، ولم يتحدث عن المهمة العسكرية ، فلا نعرف اذا كان الاخصائيون قد أدوا هذه المهمة وأسسوا القلاع أم لم يقوموا بذلك • كذلك لم يحدثنا عن هؤلاء البلغار وكيف عرفوا الاسلام قبل ايفاد هذه البعثة ، وان كان بارتولد يرى أن وصف الطريق الذى سلكته البعثة يجيب جزئيا عن هذه المسألة ، وقد أشرنا الى هذا الطريق فى المقدمة • ويفهم منه ان البلغار قد اتصلوا بالمدنية الاسلامية أول الأمر بواسطة الولايات التابعة للخوارزميين والسامانيين • ولقد جعلت هذه العلاقات الثقافية التى كانت بين البلغار والخوارزميين المؤرخين الروس يظنون وجود قرابة بين الخوارزميين والبلغار ، كما أن العملة التى سكها البلغار المسلمون فى القرن العاشر تدل على تأثرهم بالسامانيين •

كذلك فان ابن فضلان لم يبين طريق عودة الوفد وان كان يفهم أنه قد عاد الى بغداد مارا ببلاد الخزر ، ولعل ضياع نهاية المخطوطة التى التى ضمنها تقريره عن هذه الرحلة قد حجب هذه التفاصيل •

كذلك فهنالك بعض الملاحظات على ترتيب بعض الأنهار جغرافيا أشار اليها بعض المستشرقين يضيق الحديث عن تفصيل القول فيها • ولكنه باعتراف هؤلاء المستشرقين قد قام بوصف دقيق وواضح للأقوام التى مر بها ، وقد اشار «تشاكلدى» الى أن ابن فضلان قد ذكر اسماء الأنهار والقنوات فى البلاد التركية فى وضوح ودقة من الناحية التاريخية ، بل وأكثر من ذلك أنه سجل آثار بعض لغات هذه البلاد فى اسماء هذه الأنهار •

ومهما يكن من أمر فحسب « ابن فضلان » أنه استطاع أن يضيف الى التاريخ والثقافة هذه الصفحات الثمينة التى أثارت – وما تزال – اهتمام العلماء والدارسين اهتماما بالغا وتقديرا حفيا استمر أكثر من قرن ونصف من الزمان •

فوزى العنتيل

---

(١) انظر : دائرة المعارف الاسلامية ، وتاريخ الترك •